Sham's Land Journal

مجلة ارض الشام

Vol. (3) No.(1) (2024): 18-35

مؤسسة أرض الشام

المجلد (3) العدد(1) (2024): 18-35

الهُوُية الوطنيةُ والقومية المقاومة

محمد شحاده العبد الله[1]

1. أستاذ في قسم علم الاجتماع ، كلية الآداب والعلوم الانسانية – جامعة دمشق
muhamad1.aleabdallah@damascusuniversity.edu.sy

الملخص:

يتناول هذا البحث مفاهيم عدة كالوطنية والقومية والمواطنة، كما يسعى إلى بيان العلاقة بين تلك المفاهيم، على نحو يفضي إلى التلازم بينها، مما يسهم في بلورة مفهوم الهوية الجامعة، كما يمعن النظر في المفاهيم المتصلة بالوطن والهوية، طبقا للمباحث الفكرية والاجتماعية التي عالجت تلك المفاهيم في ضوء ما تشهده الأمم في هذا العصر من نزاعات قومية واثنية مختلفة، وهو ما يدعو إلى الوقوف عند مسألة التنوع الثقافي، بغية تكوين تصور علمي للحفاظ على الهوية الوطنية في ضوء التعدد الذي يعد سمة من سمات المجتمع الحديث.

الكلمات المفتاحية: الهوية ،الوطنية ،التنوع الثقافي، المقاومة.

حقوق النشر: مجلة أرض الشام - سورية

https://journal.shamlands.sy/index.php/SLJ
تاريخ الايداع: 2024/7/25 تاريخ النشر: 2024/8/12

National identity and national resistance

Muhammad Shuhaduh Al-Abdullah[1]
1. Professor, Department of Sociology, College of Arts and Humanities - Damascus University
muhamad1.aleabdallah@damascusuniversity.edu.sy

Abstract:

This research deals with several concepts, such as patriotism, nationalism, and citizenship. It also seeks to identify the relationship among these concepts, in a way that leads to the correlation among them. This will contribute to the crystallization of the concept of comprehensive identity. It also carefully considers the concepts related to homeland and identity, according to the intellectual and social studies that have dealt with these concepts against the various national and ethnic conflicts witnessed by nations in this era. This calls for considering the cultural diversity issue in order to form a scientific vision for preserving national identity, keeping in mind that diversity remains a characteristic of modern society.

Keywords: Identity, Nationalism Citizenship, Cultural Diversity, Resistance.

الهوية:

يعد مصطلح الهوية من المصطلحات الإشكالية التي تطرح نفسها بقوة، سواء على مستوى الوعي الفردي من خلال السؤال (من نحن؟) ، ولا سيما عندما يصطدم هذا المصطلح بتحديات أو تهديدات داخلية أو خارجية ، وبالتالي فان الهوية ليست مصطلحا سكونيا" ثابتا "، بل معطى متغيرا خاضعا لسيرورة التاريخ والوعي الإنساني.

ومن هنا فأنها تحدد من خلال مجموعة من المعطيات المختلفة الثقافة، الوعي، الذاكرة، الانتماء، الواقع، العلاقة مع الآخر ...الخ.

فالسؤال: من أنا؟ من نحن؟ هو السؤال عن الهوية، لان الصيغة تشي بالتعريف، وكل تعريف هو في نهاية الأمر تحديد للصفات الأساسية التي تقوم بوظيفة التمييز، فالهوية، مفهوماً، "هو ما يتقوم به الشيء، وهذا يعني التقاط الثابت الجوهري من المتعدد الثانوي، وعندما تكون الهوية تمييز ذات عن آخر، تمييزا"" مستمراً، وإذاً لم يكن الأمر كذلك لم يعد لمفهوم الهوية من معنى. وترتبط الهوية بالوعي الذاتي للوجود والاجتماعي لجماعة محددة من الناس.

إن ما يجعل الأمة العربية مسكونة بهاجس الهوية هو الإحساس بالخطر الصهيوني، والدعم الغربي – الأمريكي خاصة "– للدولة العربية، الأمر الذي ولد ظاهرة رد الفعل القومي على مستوى الوعي وعلى مستوى الممارسة. فإذا كان العداء للغرب الاستعماري قد عزز من الإحساس بالهوية القومية فان الخطر الصهيوني رفعه إلى أعلى درجاته. فالهوية شعور بالانتماء وتأكيد له على المستوى القومي.

ولا بد من وجود استراتيجية فعالة للحفاظ على الهوية الوطنية، لاسيما في ظل التحديات والمخاطر التي تواجهها الدولة، وتتجلى خطوط تلك الاستراتيجية من خلال البحث في أصول الهوية وابراز تراكماتها الحضارية، والتصدي للأفكار المتطرفة ومحاولات سرقة.

الهوية وتزييف التراث، والعمل على الوعي المجتمعي ووضع برامج للتوعية وترسيخ القيم الإنسانية والإيمانية، وتفعيل قيم المواطنة، والارتقاء بالذوق العام وتأصيل الحس الجمالي، ومتابعة أثر وسائل التواصل الاجتماعي ومراقبته في التأثير على الوعي والتنمية وأثر مؤسسات الدولة والمجتمع الوطني في بناء الشخصية والهوية الوطنية والتحديات التي تواجهها في زمن العولمة وعصر السماوات المفتوحة والفضاء الإلكتروني والذكاء الاصطناعي، إضافة إلى وضع آليات فاعلة وسياسات وتشريعات ثقافية للحفاظ على الهوية الوطنية والتدفق الحضاري العصري.

ومن خلال إدراكنا لأهمية ترسيخ الهوية الوطنية نحو ضرورة العمل على تطوير المناهج الدراسية لتشمل إضاءة تغيير التاريخ والثقافة الوطنية، وتنظيم فعاليات ثقافية وأدبية للشباب لتعزيز الاهتمام بالتراث الثقافي والوطني ودعم المبادرات الشبابية والمجتمعية التي تروج للسلام والتعاون بين مختلف فئات المجتمع، وإطلاق مبادرة الإعلام الآمن للطفل، ودعم الهوية الوطنية للطفل، ونشر الفكر الذي يتناسب مع قيم المجتمع الدينية والتراثية.

تعتبر الهوية الوطنية مكوناً رئيسياً بين الدول وتميزها عن غيرها، فالهوية الوطنية هي الخصائص والسمات التي تتميز بها كل أمة، وتترجم روح الانتماء لدى أبنائها: لأهميتها في رفع شأن الأمم وتقدمها وازدهارها، ومن دونها تفقد الأمم معاني وجودها واستقرارها، بل يستوي وجودها وعدمه.

فالهوية الوطنية تتسم بالفرادة، لما تضمه من تاريخ وحضارة عظيمة وتراث حي ومقومات ومعالم فريدة. وهذا ما أ وجد الحاجة إلى العمل على تعزيز هذه الهوية. من خلال غرس القيم الايجابية وروح الانتماء والولاء للوطن في نفوس أفراده، كونه عنصراً مهماً لتحقيق التماسك بين فئات المجتمع المتنوعة.

وانطلاقاً من أن الهوية الوطنية مرتبطة بالثقافة لأنها تصنع من خلال المعطيات الثقافية المختلفة، فإن الالتزام ضروري بإتاحة الثقافة بمختلف فئات الشعب دون تمييز، والحض على حرية الإبداع الفني والأدبي مع التزام الدولة بالعمل على النهوض بالفنون والآداب ورعاية المبدعين وحماية إبداعاتهم، كذلك تمكين الوصول إلى وسائل اكتساب المعرفة.

وفتح الآفاق أمامه للتفاعل مع معطيات عالمه المعاصر، وإدراك تاريخه وتراثه الحضاري على أن تكون العناصر الإيجابية في الثقافة مصدر قوة التحقيق والتنمية، وقيمة مضافة للاقتصاد القومي وأساساً لقوة البلاد إقليمياً وعالمياً.

وللهوية الوطنية عناصرها التي لا تقوم إلا بها وهي وحدة الجغرافية، والتاريخ، والاقتصاد، والمجتمع، والحقوق والواجبات، يضاف إليها اللغة، والاعتقاد، والرمز المشترك ألا وهو العلم الذي يرمز إلى البلاد.

ومن المعروف إن الوعي بالهوية والالتزام بها له آثار عظيمة تتمثل في قوة النسيج الاجتماعي. بحيث تعجز عن اختراقه مكائد الطامعين وأهواء الفاسدين، ما يجعل للأمة هيبة بين الأمم.

والهوية واللغة موضعان متلازمان يتفاعلان، فبالسلوك الفردي الاجتماعي داخل الأوطان، يؤثر كل منهما في الآخر. قوة وضعفاً. إذا قويت الهوية قويت اللغة ، وإذا ضعفت الهوية ضعفت اللغة.

اللغة تعبير عن الهوية، (العروبة هي اللسان) فكل من تحدث العربية هو عربي، وجميع علماء العجم الذين تحدثوا العربية وألفوا، مثل سيبويه والفارسي وابن سينا وغيرهم هم عرب، وبلال الحبشي وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي صحابة الرسول (ص) هم عرب أيضاً بفعل اللغة.

مفهومُ الوطنية:

الوطنية مصدر صناعي منسوب الوطن، ومعناها: التعلق بالوطن وحبه والإخلاص له والتضحية من أجله[1]، وفي ضوء الخلاف إزاء مفهوم الوطن، لابد من تحديد المصطلح بصورة تشفُّ عن توضيحه، إذ احتدم ذلك الخلاف حول ما إذ كان الوطن يشكل مفهوماً، أو مصطلحاً، إذ توجد فروق بين الأمرين، فالمصطلح ينزع عادة إلى التحديد الدلالي، في حين ينزاح المفهوم عن الدلالة المحددة، فينحو من هذه الناحية إلى الاتساع، وعليه يسعى المصطلح إلى المعنى الضيق المحدد، ويسعى المفهوم إلى الانفلات من المعنى الضيق إلى دلالات متشعبة ومعان كثيرة، فمن هذه الجهة أظنّ أنّ كلمة الوطن أقرب إلى المفهوم منها إلى المصطلح، والسبب في ذلك أنّ الكلمة تشربت دلالات كثيرة في الأزمنة المتعاقبة، ففي الزمن القديم لم يكن لكلمة "وطن" في الفكر العربي حيزٌ يدعو إلى تحديد مجالها الاصطلاحي، فالتقلبات السياسية والأحداث التاريخية التي شهدها الوطن العربي في العصور القديمة لم ينجم عنها تيارات فكرية تجسّد مسألة الانتماء إلى وسط جغرافي

[1]- ينظر: العطية، مروان، معجم المعاني الجامع، دار غيداء، ط1، 2018، ص:443.

بعينه، لعدم وجود عوائق تحول من دون انتقال الأفراد من مكان إلى مكان آخر، أو إقامتهم في بقعة جغرافية ما يختارونها على امتداد الوطن العربي، من أجل ذلك كان مفهوم الوطن في القديم متسعاً، وهو من ثمَّ غير محدد بجغرافية أو مقيد بسياسة ما، لهذا أصبحت هنالك مشقة في تحديد مفهوم الوطن في الفكر القديم، إذ يلحظ الباحث أصواتاً مختلفة في شعرنا القديم، تتحدث عن الوطن تظهر بوضوح تارة، وبإيحاء تارة أخرى تبعاً لظروف طارئة أو أحداث عارضة، مثل ما يمكن ملاحظته من التحنان للوطن في قصيدة لمالك بن الريب حين خرج غازياً في جيش ابن عفان، فلما تراءت له المنية في مرو أنشأ يقول[2]:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بجنب الغضا أُزجي القلاصَ النواجيا
دعاني الهوى من أهل ودٍّ وصُحبتي بذي الطبسين فالتفتُ وارئيا
أجبت الهوى لما دعاني بزفرةٍ تقنعتُ منها أنْ أُلامَ ردائيا

ففي القصيدة معان تشير إلى حنين ابن الريب إلى موطنه وأهله وعشيرته، بيد أن هذا النّص لم يستطع تحويل تلك المشاعر الوجدانية الجارفة إلى فكرة يمكن تصنيفُها ضمن سياق الوعي بالمفهوم، وربما كان ابن الرومي من أوائل الشّعراء الذي لامسوا في أشعارهم مفهوم الوطن في قوله[3]

ولي وطنٌ أليت ألا أبيعَهُ وألا أرى غيري له الدهرَ مالكا
وَحَبب أوطانَ الرجال إليهم مآربُ قضّاها الشبابُ هنالك
إذا ذكروا أوطانَهم ذكّرتهمُ عهود الصِّبا فيها فحنوا لذالكا

والفرق واضح فيما أرى بين قصيدة ابن الريب وقصيدة ابن الرومي، ذلك لأن ابن الريب اتصل كلامُه على الوطن بحادثة أيقن من خلالها أن الموت سيطوله وهو بعيد عن بلده وأهله، فكانت القصيدة ضرباً من الحنين ولوناً من الإحساس بالاغتراب، في حين تحدث ابن الرومي عن الوطن بوصفه فكرة وشعوراً بالانتماء، إذ هو لا يساوم على وطنه، ولا يطيق أن يملكه غيرُه، وهو المكان الذي ألفته نفسه حتى صار جسداً لروحه، وفوق ذلك كله أحب وطنه بكل جوارحه، لأنه استودع فيه شبابه وذكرياته، وأبلغ ما في نص ابن الرومي بيته الأخير إذ يشير فيه أن ذكر الوطن يهيج في صدور الرجال تاريخهم المنصرم كما يجسد طموحهم في الحياة، ومعنى ذلك أنه لا يشعر المرء بوجوده الأمثل إلا إذ امتلك وطناً، تتحقق فيه ذاته قبل كل شيء.

أما في الفكر العربي الحديثُ فقد برز مفهوم الوطن مع ظهور الاستعمار، ومع نمو الأفكار القومية منذ أوائل القرن التاسع عشر، إذ كانت معظم البلاد العربية تحت السيطرة العثمانية، ومع انحلال الدولة العثمانية فيما يعرف عند الغرب (بالرجل المريض) هُرعت القوى الغربية إلى الاستيلاء على أجزاء من الوطن العربي تحت ذريعة استعمارها أو الأخذ بيدها حتى تلحق بركب الحضارة الغربية

---

[2]– أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، مطبعة التقدم بالقاهرة: 233/4

[3]– ابن الرومي، ديوانه ، تحقيق: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت ،1990:3/422.

التي قطعت شوطاً واسعاً في التطور، في الوقت الذي أراد فيه العثمانيون الحفاظ على تأخر العرب وتخلفهم ليسهل حكمهم.

وفي الأدب العربيُ الحديث، أسهم الشعراء المهجريون في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في انتشار الأفكار الوطنية على نحو واسع، إذ أصدروا الصحف وأسسوا المنتديات، وقد اعتمد كثير من شعراء المهجر على الرومنسية بوصفها وشاحا للأفكار الوطنية، إذ كانوا في البدء يدعون إلى استقلال سورية عن الإمبراطورية العثمانية، وقد تضخمت صورة الوطن عند كل من نسيب عريضة وجبران خليل جبران لتغدو أشبه بالفردوس، ذلك لأن الوطن في أدب المهجريين عامة وفي أدب جبران خاصة مبعث للجمال والطهر والبراءة، يقابله عالم شيطاني مثلوه بالحضارة المادية في الغرب.

من ظواهر إسهام المهجريين في بلورة مفهوم الوطن ما كتبه أمين الريحاني وإيليا أبو ماضي وغيرهما إزاء نكبة فلسطين، وارتبط مفهوم الوطن لديهم بمحاربة البريطانيين وإحباط وعد بلفور ومهاجمة المستعمرين[4].

وبموازاة مفهوم الوطن كان لابد أن يبرز مفهوم الهوية والانتماء، للوقوف أمام المد الاستعماري في الشرق الذي عمد إلى تجزئة الوطن العربي، وإنشاء كيانات هزيلة مستلبة الحرية لا تقوم بذاتها اقتصاديا لتكون في حال من التبعية الدائمة للدول الاستعمارية، من هنا ظهرت أصوات أدبية كثيرة تنادي بالهوية العربية الإسلامية ، ومن هنا طرحت فكرة ابتعاث الماضي للأمة ، وعلى هذا الأساس قامت الدول العربية الحديثة، غير أن مفهوم الهوية لا يتفق مع الحدود الوطنية الحالية، لأن ذلك المفهوم يتخطى الحدود القطرية إلى بقاع الوطن العربي كله، ومن ثم لا يتطابق مفهوم الهوية العربية مع مفهوم الوطن، لأن الوطن اليوم محكوم بحدود سياسية، من هنا بدا مفهوم الهوية أكثر التصاقا بمفهوم القومية اليوم.

ففي الأدب الحديث تتضافر ثلاث كلمات لتشكل حقلاً دلالياً يخص الوطن، وهي المرأة والأرض والوطن، لذلك عمد الشعراء إلى تأنيث الخطاب الوطني في أدبهم، وهي رؤية رومنسية أتاحت الحديث عن الوطن – المرأة ضمن منظور إيحائي جنسي، لهذا استخدموا كلمة الحبيبة / العشيقة / الخطيبة ... للدلالة على الوطن، وهو أمر متكرر عند أدباء النصف الثاني من القرن العشرين، كأحلام مستغانمي في روايتها "ذاكرة الجسد"، التي تتحدث عن محارب سابق خاض حروباً عدة ضد الفرنسيين في الجزائر، ثم سخر موهبته الفنية في رسم جسور شهوانية بين مدينته قسنطينة والمرأة.

تستلزم فكرة الوطن جانباً من الممارسة الفعلية من قبل المواطن، كالانتماء والمواطنة ، فإن كان الانتماء مجرد شعور يشد الفرد إلى مكان يرتبط به فكرياً ووجدانياً، فإن هذا الشعور يبقى سلبياً ما لم يشفع بممارسة فعلية يعبر عنها الفكر الحديث بالمواطنة ومعناها العمل الحقيقي من أجل خدمة الوطن والدفاع عنه والإسهام الفعلي في تطويره فيما يصب في مصلحة الجماعة، ولا أعني بذلك

---

[4]– محمد، آلاء– زهراء كريم، تجليات الغربة في شعر المهجر، رسالة جامعية مقدمة لجامعة القادسية بإشراف د. رواء نعاس ،2017، ص: 15.

الواجبات الحيوية التي يقدمها المواطن لحماية وطنه من المخاطر فحسب، بل أعني الأنشطة الفعالة التي تنهض بالوطن بطريق الأعمال الإبداعية التي تكوّن رصيداً حضارياً للوطن مثل المكتشفات العلمية والأعمال التجارية والصناعية المتميزة، والأعمال الأدبية والفنية والرياضية الباهرة التي تترك صدى طيباً لدى الشعوب الأخرى إزاء الوطن.

مفهومُ القومية:

انبثقت فكرة القومية في أذهان المفكرين العرب منذ أواخر العهد العثماني، حيث بدأت تشع الأفكار القومية، ولاسيما عند المفكرين الأتراك، ثم انتقلت هذه إلى العرب بطريق المثقفين التنويريين من أمثال: عبد الرحمن الكواكبي[1] ومحمد كرد علي[5] وساطع الحصري وغيرهم[6]

ومن المعروف أن ضعف السلطة العثمانية، قد دفع المفكرين إلى الاعتقاد بأن الرابطة الدينية لم تعد ناجعة للوقوف أمام المؤثرات الفكرية الغربية، ولاسيما فيما يخص فكرة الوطن التي افترضت تحديداً للمكان الجغرافي ومن ثم الانتماء إليه، أو ما سماه باشلار بطوبوغرافية الوجود الحميم، أي ما يثبت أسس الهوية الجمعية الإيجابية[7]

لقد أراد الأتراك الوقوف ضد الأفكار القومية التي انتشرت عند المثقفين العرب، فسارعوا إلى إنشاء الجمعيات الفكرية يدعونهم للانضمام إليها، للحد من أخطار التمزق الجغرافي الذي كان يهدد كيان الدولة العثمانية، ومع ظهور الإصلاحيين برزت صياغة جديدة للأفكار الوطنية والقومية عند الأتراك أنفسهم، أما الفكرة القومية عند المفكرين المصريين فلم تتبلور على نحو واضح إلا بعد حملة نابليون بونابرت عام 1797م، إذ امتزج مفهوم القومية لديهم بالأيديولوجيات المختلفة ولاسيما الأوربية منها ، وكان رفاعة الطهطاوي الشيخ الأزهري الذي أرسله محمد علي باشا إلى فرنسا ليكون إماما للطلاب المبعوثين.

---

[5]–عالج محمد كرد علي فكرة القومية من خلال انتمائه للعرب، ينظر: كتاب البعد القومي لدى العلامة محمد كرد علي ،محمود عباس، ص:54

[6]– ينظر: الدوري، حازم، فلسفة الفكر القومي عند ساطع الحصري ، مجلة سام اره، المجلد:7: العدد:26، السنة: 7، تموز:2011،ص:5.

[7]– باشلار، غاستون ، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدارسات ، ط5، بيروت: ص:198.

1 – ينظر: كتاب "طبائع الاستبداد"

لعبد الرحمن الكواكبي، حيث عرض فيه فكرة القومية التي تنطلق من أن العرب هم الوسيلة لجمع الكلمة الدينية للمسلمين كافة، ص:56 وما بعدها.

للتحصيل العلمي، قد ترجم المصطلح الفرنسي(BATRIE) بكلمة الوطني أو القومي، ليسهم في تأسيس الأفكار القومية على غرار الفكر القومي الغربي

كان من أهم الأعلام العرب الذين تحدثوا عن مفهوم القومية في كتاباتهم أحمد فارس الشدياق (1804–1882م) وبطرس البستاني(1819– 1883م) فتكلم البستاني على القومية السورية التي تقوم عنده على إرساء الهوية على أسس علمانية، وأشاع البستاني فيما كتب آنذاك مفهوم الوحدة الوطنية على أعقاب موجة العنف الطائفي التي اندلعت في لبنان عام 1860م ، وقد دعا البستاني إلى إصلاح التعليم والتوسع في تثقيف الشعب فترجم لهذه الغاية رواية دانيال ديفو المسماة بروبنسون كروزو"، وحدد البستاني مفهومه للقومية من الناحية الجيوسياسية بسورية ولبنان وفلسطين والأردن أو ما اصطلح عليه ببلاد الشام 2.

وفي أعقاب الثورة العربية التي قادها الشريف حسين عام 1916م، برز مفهوم جديد للوطن، إذ حاول الشريف حسين تأسيس مملكة عربية تضم سورية والعراق وجزئاً من الحجاز، وهو أدنى إلى مفهوم القومية، ذلك لأنه لامس المشاعر القومية عند العرب، وفي الوقت نفسه بقي التماهي بين الأفراد والبقعة الجغرافية الضيقة أساس الانتماء مثل أن تكون سورية في بلاد الشام وطناً، وكانت حدود القبيلة في بلاد الشام تشكل وطناً أيضاً.

الوطنُ والمواطنة:

لا شك أن الإعلام قد أسهم في نشر الأفكار القومية، ولا سيما في النصف الثاني من القرن العشرين، وذلك لقدرته على تكوين الرأي العام والمشاركة في صناعة القرار، ومن ثم الإسهام في ترسيخ مفهوم المواطنة، من جهة القيام بالواجبات والتمتع بالحقوق.

وصار لازما في ضوء النشاط الإعلامي الذي يسعى إلى ربط المواطن بالوطن، تعزيز ثقافة اجتماعية ينشرها فيما يوافق أهدافاً محددة ترسمها الدولة لتنظيم أشكال التواصل الاجتماعي والسياسي.

وفي ضوء التّطور الهائل الذي شمل وسائل الاتصال في الزّمن الحديث، برز مفهوم "مجتمع المعلومات" الذي أُريد له التركيز على الناتج المعرفي المتزايد للتكنولوجيا، ومن ثمَّ تسخير علم الإعلام.

للنهوض به ليُمسي مصدراً من مصادر القيم، أو على الأقل مرصدا لمعاينتها، ومن هنا ظهر النشاط الإعلامي المعاصر لينقل المعلومات والأفكار السائدة ، وعلى رأسها فكرة المواطنة التي أثارت كثيراً من الجدل حول أشكالها ومضامينها ومناهجها، وكانت أبرز تلك الخلافات الناجمة عن ذلك الجدل متمثلة في ماهية المواطنة من جهة كونها عقيدة أو منهجاً، بيد أنّ تغليب فكرة النّظام

السلمي التعايشي بين الناس، الذي يحترم عقائد المجتمعات وقيمها، ويبتدع الحلول، ويعتمد على المؤسسات، ويسمح بممارسة الحريات العامة وفقا لدستور البلاد بصورة تقبل الاحتكام إلى الشرعية، قد أفضى إلى ضرب من التوافق بين دعاة المواطنة في العالم الرأسمالي على نحو خاص، وهذا لا ينفي بالطبع الخلاف القائم في الممارسة الفعلية من جهة تطبيق مفهوم المواطنة بشكلها المطلوب، لكونها في حقيقة الأمر مجرد شعار أرسمالي من جهة، أو عقيدة ليبرالية ترفض القيود المفروضة على حرية الفرد من جهة ثانية.

اهتمت الديمقراطيات الحديثة بحرية التعبير وبالمواطنة، فكانت وسائل الإعلام الحامل الرئيس لهاتين الفكرتين، وقد حُدد حقُّ المواطنة بعلاقة الفرد بالدولة كما يقرها قانون تلك الدولة، أو أنّها درجة ما في ممارسة الحرية في ضوء المسؤولية، ويكاد مفهوم الجنسية أن ينصهر في بوتقة المواطنة، إلا أن فارقاً يشخص بينهما، وهو أن للجنسية امتيازاً خاصاً من الحماية خارج البلاد أما الديمقراطية فتضمن حريةَ التعبير، واتصال الفرد بالآخرين، وحرية الصحافة والنشر، بوصف ذلك كله من أهمّ صور الرأي العام[8].

يتمثل الحدُّ الأدنى للمواطنة من وجهة نظر ديمقراطية بالمساواة بين الناس ، والحفاظ على الحريات العامة، على أن تكون هنالك جهات رقابية علنية تتمثل بالمنظمات الاجتماعية غير الحكومية ترعى المعايير الأخلاقية ، وتحول دون الانفراد في صياغة القرار، أو تسخيره لخدمة فئة دون فئة، وتقف ضد الإرهاب بكلّ أشكاله، ذلك لأنّ الإرهاب هو الذي يعطل الممارسة الديمقراطية، بيد أنّ الجانب العملي في الممارسات الديمقراطية الغربية يشفُّ عن تجاوز بالغ الخطورة يتمثل باللغة المميزة لبعض المؤسسات الديمقراطية التي تتجاهل الإرهاب ، فهنالك حالات موثقة تشير إلى استخدام حكومات ديمقراطية غربية الإرهاب ضد مواطنيها بحجة حماية المصلحة العامة، أو حماية القانون من تجاوزات الرعاع أو ما يسمى الإرهاب المناهض[9] وبذلك عالجت الديمقراطية المعاصرة العنف بطريقة القتل النازي الرحيم (1939 .1941م) الذي أودى بناء على أوامر هتلر على ما يقارب مئة ألف ألماني من المصابين باضطرابات عقلية وجسدية مستعصية مستعينة بالإرهاب المنظم وتعبئة الجماهير باسم الأمة والعرق بغية التطهير[10] يقول جون كين :"إنّ للمجتمعات المتمدنة التي ترتكز على ديمقراطيات اليوم صلة بالإرادة لاجتثاث العنف أو نزع الصفة الطبيعية عنه بوصفه احتمالا قابلا للإزاحة سياسيا ، وقد قال أحد **الصحفيين البريطانيين في أثناء الحرب العالمية الثانية:**

---

[8]- المرجع نفسه، ص:42

[9]- بيتر، جون **الاتصالُ لجماهيري** (ترجمة: عمر الخطيب طبع المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1987م ص:68).

[10]- كين، جون **العنفُ والديمقراطية** (ترجمة هيثم فرحت نشر الهيئة العامة السورية للكتاب دمشق 2011م ص:23).

سوف نكسب الحرب، لأننا مازلنا بلدا ديمقراطياً، لأنّ نظرة النقد مازالت مسلطة على الذين قد ينزلقون نحو أساليب تفتقر إلى الإرادة والأصالة" لقد قامت الديمقراطية فعليا كما يرى "كين" في نظام مولد للمخاطر ، ولهذا انهمكت القوى السياسية بتوجيه قواها العسكرية إلى جمع المعلومات الاستخبارية والسيطرة الإلكترونية على شبكات الاتصال ، ومع ت ازدياد احتمال نشوب حرب نووية مستقبلا ، فإنّ الولايات المتحدة الأمريكية قد استثمرت نحو ستين مليار دولار منذ ثمانينات القرن العشرين في مشروع الدرع الصاروخي الذي يستهدف ردع القوى النووية التي تتحالف معها حالياً، مع أنّها تمتلك أكثر من سبعة آلاف أرس نووي، إلا أنّها تسعى إلى امتلاك قوة ردع كافية لدرء حرب نووية محتملة ، وبذلك أضحت نظرية " الحزام الديمقراطي للسلام " التي تكلم عليها "جيفري غولد شتاين" غير واقعية ، ومع تقدم وسائل الاتصال اليوم صار بوسع المرء أن يرى بوضوح نمو ظاهرة الإرهاب في بقاع كثيرة من العالم ، وعلى هذا النحو بتنا ندرك من خلال ما تزودنا به وسائل الاتصالات أن الديمقراطية تنحرف عن مسارها السلمي ، على الرغم من أوهام دعاة السلام والأمن ، إذ بتنا على حافة عصور وسطى جديدة متعددة الاتجاهات ، ومتناقضة في ذاتها ، وهي بعد ذلك كله لا تتسم بالوحدة الروحية ولا بالوحدة العلمانية[11].

إن الديمقراطية الغربية تتجاهل ما ه تتناقل وسائل الإعلام عن ضحايا الإرهاب في العالم ، وتشيح بأبصارها عن التقارير التي تصدرها منظمات حقوق الإنسان بين الحين والآخر ، ولاسيما التقرير العالمي عن العنف المنشور سنة 2002م " الذي يوضح أن 1،6 مليون إنسان يواجهون الموت بسبب الإرهاب سنوياً، وبمعدل وسطي هنالك 35 إنسانا يموت ضحية العنف في كل ساعة، كما يتعرض ربع نساء العالم لعنف جنسي ، ومن المؤسف أنّ كثيراً من الصحفيين الذين يعملون في حقل الإعلام كالتلفاز مثلاً، يستفيدون من هذه الأرقام لتأكيد الانطباع بأن العنف أمر طبيعي أو أنّه من ثوابت الحياة البشرية[12] وهذه المسألة تطرح أسئلة جوهرية في ضوء وظيفة الإعلام المعاصر أبرزها هل الإعلام حامل للديمقراطية أم تابع للسياسة ؟

إن الديمقراطية الغربية العامة تنطلق من مبدأ يفضي إلى أن تكون هنالك ديمقراطية تستقر في المركز، مقابل إثارة ما يسمى بالفوضى الخلاقة أو الإرهاب المنظم في الهامش، وهو شكل الصراع الحالي ، فما دامت هنالك فوضى ممكنة في الشرق الأوسط خاصة ، فإن في ذلك تحقيقا للهدف السياسي الاستعماري الذي يرمي في آخر الأمر إلى السيطرة الواسعة على بقاع شاسعة من العالم، وعليه فإن محاربة الإرهاب مجرد صورة زائفة من صور الحداثة الديمقراطية الغربية، ذلك لأنها لا تعدو كونها هيمنة واستغلالاً للمجتمعات المتخلفة بذريعة تقديم المساعدة لها لبلوغ الديموقراطية وهي

---

[11]- المرجع نفسه، ص: 2.

[12]- المرجع نفسه، ص:32.

الذريعة نفسها التي قدمها الاستعمار الأوربي القديم تحت مسمى حماية أو الأخذ بيد المجتمعات المتخلفة لتأخذ حظها من التطور والتقدم ، واليوم نجد الصنيع نفسه يتكرر في بقاع كثيرة في العالم مثل أفغانستان والعراق والصومال وسورية تلك التي تم التدخل في شؤونها بحجة نشر الديمقراطية والقضاء على الإرهاب، والواقع أن ذلك صورة من صور الهيمنة الاستعمارية المعاصرة التي خطط لها الساسة الغربيون ولاسيما صموئيل هانتنجتون في كتابه "صارع الحضارات" للسيطرة الكاملة على العالم وخاصة البلاد العربية ، إذ أشار في كتابه أن استمرار صعود القوة ذات القطب الواحد منوط بضرب من الصراع ، حتى لو كان مفتعلاً، من أجل ذلك طرحت أفكار كثيرة منها الفوضى الخلاقة، وإعادة صياغة الصراع في العالم، وتجزئة المج أز وتقسيم المقسم، فكل ذلك وجد لاستمرار الهيمنة الاستعمارية الجديدة التي تتذرع بمكافحة الإرهاب ونشر الديمقراطية ، لينعم العالم بسلام مكذوب، وفي الوقت نفسه نجد الإعلام الغربي وديمقراطياته، يثير الفتن وينشر الإرهاب ويدعم المجموعات التكفيرية في بقاع كثيرة ، ويحاول باستمرار القضاء على الفكر المقاوم[13] .

تبدو أهمية الانتماء الوطني والمواطنة في ظل الظروف الراهنة من خلال المحافظة على الوحدة الوطنية ، والعمل على تحقيق الأهداف التي تلبي تطلعات المجتمع ، بطريق الممارسة الديمقراطية الحقيقة الكفيلة بإخراج تلك الدول من أزمتها، وبث الوعي بين المواطنين لترسيخ مبدأ المواطنية الذي يعد من أرقى الحاجات التي تكفل للمواطن كرامت، إذ ليست المواطنة شعور فحسب وإنما هو سلوك وممارسة، يسهم المواطن فيه بأداء دوره الوطني ولاسيما في موضوع المواطنة لأن الوطن أكبر من الجميع ، والمواطنة التي ثبتتها الأنظمة السياسية التي تتبجح بديمقراطياتها ، يحتاج اليوم منا إلى مراجعة حقيقة.

الوطنيةُ والقوميةُ في الفكرُ الاجتماعي:

1- الوطنيةُ والأثنية:

تعاملت الدراسات الاجتماعية مع مفهوم الوطنية والقومية من خلال ارتباطها بمسألة الإثنيات على أنها مفهوم عالمي لا يخص بلدا دون آخر، حيث أثرت المسألة الإثنية في جميع مناحي الحياة، ولا سيما الاقتصادية والسياسية ولاجتماعية، فبدأت المنظمات الإنسانية بالمطالبة بحقوق الإثنيات، ولا سيما الحفاظ على خصوصيتها الثقافية والتاريخية لما لهذه الناحية من أهمية في استقرار المجتمعات الحديثة. ولا سيما المجتمعات العربية التي تتشكل من انتماءات قبلية وعشائرية، على اعتبار الإثنية في جوهرها تتكون من محددات لغوية وثقافية ودينية وطائفية متعددة، تتجاوز في جوهرها التصنيفات النظرية الشمولية التي تتجاهل خصوصياتها، مما يشير إلى أن للإثنية تصنيفات خاصة

[13]-هنتنغتون، صموئيل، صدام الحضارات، ترجمة: طلعت الشايب، ط2، 1999،ص:94

تتلاءم مع مطالبها من حيث نزوعها إلى الاندماج أو الانفصال، ولاسيما في الأنظمة الاستعلائية المهيمنة كالنازية والصهيونية، إذ الإثنية في حقيقتها ظاهرة معقدة يتطلب تحليلها إلى إحاطة بأبعادها النفسية والمادية والاجتماعية التي تمثل البيئة التي أنتجتها، حيث إن لكل إثنية طابعها المميز، ولهذا لا يمكن أن تتطابق الإثنيات جميعا في توصيف نظري محدد، لذا يمكن النظر إلى كل إثنية من خلال مطالبها التي تتعلق بالنظام السياسي الذي تعيش في ظله، والمجتمع الذي تخضع له، ومن أبرز المطالب الإثنية تأكيد هويتها وتمثيلها في الهيئات التشريعية والتنفيذية والقضائية، ومنحها مكاسب تتصل بالحفاظ على هويتها واحترام عقائدها وعادتها وتقاليدها، مما يضعف لديها النزوع الانفصالي، ذلك أن تهميش الجماعات الإثنية يدفعها إلى تنظيم نفسها، ومن ثم الانفصال عن الكيان القومي للدولة، ومثال ذلك الأكراد في شمال العراق ونيجيريا والسودان والبوسنة والاتحاد السوفيتي السابق، فهذه من أبرز النماذج التي جسدت التجربة الإثنية، ومدى انعكاسها على الكيان المتماسك للدولة.

تستند المطالب الإثنية عادة إلى مسوغات تراها موضوعية، تتمثل على المستوى السياسي بالانفصال لإقامة كيان مستقل عن الكيان القومي للدولة، أو الاستقلال الإداري، أو الحكم الذاتي، للحصول على إيرادات مالية تلبي حاجاتها، وتشعرها باستقلال نسبي ضمن فيدرالية دون الانفصال كلية عن كيان الدولة، مما يضمن الاعتراف بخصوصيتها وقيمتها وتميزها

ومن مطالب الجماعات الإثنية شغل المناصب العامة في الدولة، ومن ذلك مطالبة جماعة الكيوري في موريتانية والإيبو في نيجريا واللوزي في زامبا والهوتو في بوروندي والبربر في المغرب العربي والأوزومو والسيدامو في إثيوبيا، والجماعات البيض في زيمبابوي، حيث نص الدستور في تلك البلاد على تخصيص(20) بالمائة من مقاعد البرلمان مع أن نسبتهم لا تتجاوز(5) بالمائة من مجموع عدد السكان[14].

شكلت الإثنيات تحديات خطيره في مرحلة ما بعد الاستعمار، على اعتبار هؤلاء إثنية ذات ثقافات مختلفة ،يصعب دمجهم في المجتمع الغربي الصناعي، مع أنهم أمسوا رعايا في تلك الدول، فوضعت استراتيجيات لإذابتهم في بوتقة الدولة، فكان من شروط قبولهم تعلمهم اللغة، كشرط أساسي لحصولهم على الإقامة الدائمة، ومن ثم الانخراط القسري في العمل، وفرض مهام أخرى كالدفاع عن الوطن، والأمر نفسه يصدق على الرعايا الغربيين الذين أقاموا في البلاد التي استعمروها، أو التي بسطوا سلطانهم عليها في الحروب الكبرى، كالذي حدث في العهد النازي في الحرب العالمية الثانية، حين استوطن الألمان في الكثير من البلدان الأوروبية التي هيمنت عليها النازية، حيث تم طردهم حالما هزمت ألمانيا بعد الحرب، لتشهد القارة الأوربية أكبر حركة تهجير

[14]- عاشور ، التعددية الإثنية، مرجع سابق، ص:10.

قسري في تاريخها الحديث، إذ تم طرد سبعة ملايين ألماني من يوغسلافيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا، ثم تم تهجير خمسة ملايين ألماني من شرق القارة الأوروبية إلى غربها هربا من الجيش السوفياتي، إضافة إلى طرد كثير من الإثنيات الأخرى مع ترسيم حدود الاتحاد السوفياتي بعد الحرب العالمية الثانية، وأعيد رسم حدود بولندا وألمانيا على أساس قومي أو إثني، ما عدا الاتحاد السوفياتي ويوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا التي استقطبت إثنيات متعددة، وبعد سقوط الشيوعية في الاتحاد السوفياتي عام 1989، عادت الإثنيات إلى مطالبها الانفصالية لعدم اندماجها مع المجتمعات التي عاشت معها، فعادت الإثنيات الروسية والألمانية إلى بلادها، وهو ما يشير إلى تحقيق مطالب الإثنيات في سائر أوروبا، ولم يختلف الأمر في دول العالم الثالث حيث انفصلت باكستان عن الهند عام 1947، وتم تهجير عرب فلسطين من بلادهم عام 1948، إذ حدث ذلك على أعقاب تقسيم الدول العربية إلى كيانات سياسية صغيرة بعد اتفاقية سايكس بيكو، ومن ثم فرض السيطرة الاستعمارية عليها، وفي آخر الأمر تم تنفيذ وعد بلفور في إقامة دولة يهودية في فلسطين، وقد راعت الدولة الاستعمارية في تقسيمها الوطن العربية مسألة الإثنيات، فقسمت الأقطار العربية على أساسها، ومع انحسار الاستعمار الغربي عن الدول العربية، خضعت لتقسيم إثني أيديولوجي آخر تمثل بالتغلغل الشيوعي في بعض الأقطار التي وصفت نفسها بالأنظمة التقدمية، مقابل القسم الآخر الذي ارتبط بالإمبريالية العالمية[15].

وفي مرحلة ما بعد الاستعمار شهدت القارة الأوربية موجات من الهجرة غير الشرعية، فهاجر نحو نصف مليون بولندي إلى بريطانيا، كما هاجر الكثير من سكان المغرب العربي وأفريقيا إلى فرنسا، مما أحدث تحولا إثنياً كبيراً في تلك البلدان، بدا من خلاله فشل الإثنيات الإسلامية في الاندماج في المجتمعات الأوروبية، حيث كان مهامها أحد خيارين: إما المحافظة على كيانها الإثني داخل بنية المجتمعات الأوربية دون انصهار كلي في بوتقة تلك المجتمعات، والعيش بشكل معزول ثقافيا وفكريا واجتماعيا، وإما قبول الهوية الأوربية والعيش وفق نمط الحياة الأوربية وتبني ثقافتها ومبادئها في السلوك والعمل ،مع الاحتفاظ عاطفيا ووجدانيا بالإثنية الإسلامية، ليكون هنالك ازدواجية إثنية تجمع بين الهوية الأوروبية والانتماء الديني الإسلامي، وهذا الأمر وان لم يكن مرضيا للأوروبيين، إلا أن ثقافة التعايش المشترك أخفت كثير من مظاهر العداء إزاء الإثنيات الإسلامية التي تعيش في كنف المجتمعات الأوروبية، كضرورات استمرارية العمل ودعم عملية الإنتاج وهذا هو جوهر الثقافة الأوروبية المعاصر، لكن على مستوى البنية الاقتصادية فهناك رفض قاطع لقبول إثنيات الإسلامية كشريك اقتصادي، وهو ما يفسر رفض السياسات الأوروبية انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي.

---

[15]-عاشور ، التعددية الإثنية، مرجع سابق، ص:32.

القوميةُ والإثنية:

ينطوي مفهوم القومية في جوهره على معان لا تخرج كثيراً عن إطار الإثنيات، فهناك من يدرج جميع من يعيش في ظل دولة واحدة، وضمن شعب واحد، بغض النظر عن أصولهم الإثنية والعرقية والعقائدية، تحت مسمى القومية. وهناك من يصنف القومية بالنظر إلى الإرث المشترك القائم على وحدة اللغة والدين الواحد والتاريخ المشترك والثقافة فيسميه بالقومية الإثنية، وهو ما تقوم عليه المجتمعات الغربية والأمريكية على حد سواء، مع أنه تم محاربة القومية الإنثية في الولايات المتحدة، فعدل القانون عام 1956 الذي نسف جذور الإثنيات الوطنية، الذي كان يقتصر على المهاجرين الأوروبيين الشرقيين والجنوبيين، أما في أوروبا الغربية فتم الاعتماد على القومية التي تدين بالولاء للدولة وفقا لحدودها السياسية، دون أي اعتبار للإثنيات الفرعية، وقد بدأت تتغلل الأفكار القومية القائمة على أساس المواطنة في أوروبا الشرقية بعد الحرب العالمية الثانية، في النمسا وتشيكوسلوفاكيا والبوسنة وكرواتيا ورومانية وأكرانيا[16].مما يعني أن العقلية الأوروبية تحارب القوميات الإثنية، معتبرة إياها من نتاج ثقافة الحداثة ،كما يقول عالم الاجتماع (إيرنست جللنر) Ernest Gellnr إن القومية الإثنية لم تكن خطا تاريخيا ، وانما هي ظاهرة مدفوعة على يد الحداثة[17] وبصورة مضادة للمعنى الذي أراده "جلنر" من أن الإثنيات ظهرة بعثها الحداثة في العصر الحديث ،عرض أريكسن مفهوما مغاير لذلك فعرض قول فيبر من أن " الظواهر البدائية كالعرقية والقومية تتنازل في الأهمية، ثم تمحى في النهاية نتيجة الحداثة"[18] ومما يثبت خطأ أفكار فيبر أن الإثنيات الصاعدة في كثير من البلدان بدءا من الحرب العالمية الثانية ولا تزال مستمرة في القرن الحادي والعشرين، وعليه فإن تنامي الهويات الإثنية أمست في مقدمة المطالب لدى مجتمعات الحداثة، وقد أشار الباحث الأمريكي" جيري مولر"(Jerry Mullar) أن القوميات الإثنية هي المؤهلة لقيادة السياسة العالمية عبر الأجيال القادمة[19] ، منطلقا من اعتبار القومية الإثنية هي بالفعل نتاج مرحلة الحداثة على نقيض ما رآه أريكسن وموافقا في الوقت نفسه ما ذهب إليه أرنست جيللر، حيث اعتبر الإثنيات نتاج الحداثة ومن الصعب تجاهل مطالبها إلا عن طريق الديمقراطية التوافقية على اعتبارها مقاربة للاندماج التعددي والإثني، إلى جانب توافر عناصر أخرى كإقرار التعددية الاجتماعية ، وإيجاد ائتلاف بين الأح ازب السياسية، واش ارك القوى السياسية في الحكم وتداول

---

[16]– عاشور ، التعددية الإثنية، مرجع سابق، ص:34.

[17]– إريكسن، توماس، العرقية والقومية، ترجمة: عبد الحسين لاهي، دار عالم المعرفة ،1993، ص: 34

[18]– المرجع نفسه ،35.

[19]– (مولر، جيري)" Mullar.J مقال بعنوان: نحن وهم– القوة الباقية للقومية الإثنية، منشور في مجلة الشؤون الخارجية(No.2 H.Will Moor(2002)Ethnic minority and foreingpolct. Summer full saisreview ,volxxir.

السلطات وحماية مصالح الأقليات، وعدم حرمان المناطق النامية من المشاريع التنموية، ومنح الاستقلالية النسبية لكل للأقاليم وضبط العلاقة بين الحكومة المركزية والإقليم لتسهيل تحقيق الأهداف المشتركة من خلال التعاون ، وليس من خلال الخضوع والتبعية وهو ما أشار إليه(Opeskim) من أن "ميكانيزما[20] العلاقات بين المؤسسات الحكومية يمكن أن تتفاعل وتعتبر كأدوات توافقية لتحقيق المنفعة المتبادلة بين الوحدات المكونة للدولة.

ومن المؤكد أن الدور الذي تؤديه الديمقراطية التوافقية، إلى جانب العناصر المذكورة آنفا، وفي مقدمتها الاعتراف بالتعددية وتجنب الإقصاء، أو فرض أيديولوجية بطريق القمع، توصل بالضرورة إلى كيان شامل مؤسساتي يرضي جميع الفئات الاجتماعية، ويبعث لديها روح التنافس في عملية الإنتاج والتطوير[21].

الخاتمةُ:

خاضت الحركات الوطنية في العالم الثالث منذ مطلع القرن العشرين، صراعات عنيفة ضد الإثنيات الطائفية والقبيلة، في محاولة لصهر تلك الإثنيات تحت إطار الوطنية، إلا أن تلك الصراعات لم تحل هذه المشكلة، ولا سيما مع تنامي المطالب الإثنية في القرن الحادي والعشرين التي تشير إلى فشل الحكومات الوطنية في إقامة نظم ديمقراطية تجنبها الحروب الأهلية، ولا تزال الحركات التحريرية واليسارية العربية ترى أن الاعتراف بالإثنيات العرقية والدينية يلغي الانتماء الوطني، وهو وضع تعاني منه بعض الأقطار العربية، على اعتبار أن الطائفية تلعب دوار سلبيا يعوق التطلعات التي تستهدف إقامة وطن متماسك وقادر على مواجهة الأخطار الداخلية والخارجية، ولهذا السبب تحولت المطالب الوطنية التي تستهدف وأد الإثنيات أشبه بالعاهة الاجتماعية، أو فتنة نائمة تخشى من إيقاظها، فبدت العلاقة بين الأنظمة السياسية العربية والإثنيات على غاية من العداء، حتى بات من المحظور الكلام على حقوق الإثنيات في الصحافة وسائر وسائل الإعلام، وبدت استراتيجية الدولة مقصورة على محاربة التطلعات الإثنية وقمعها بالقوة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل بدا الفكر الوطني في مواجهة الإثنيات بعامل الخوف من الدعوات الانفصالية التي تضمرها الإثنيات عادة، بعدما عجزت الأنظمة السياسية عن إيجاد شعور حقيقي بالمواطنة لدى الجماعات الإثنية، مما قوض إنشاء دولة المواطنة القائمة على سيادة القانون، وكان من نتيجة ذلك بروز الدولة الوطنية التي تتسق مع مفهوم العصبية الطبيعية، أكثر من بروز الدولة الوطنية ذات الشخصية السياسية الفاعلة داخليا وخارجيا.

---

[20]–الميكانزما: دينامية نفسية، وحيل عقلية، يستخدمها كوسيلة دفاعية لتجنب الألم والتحرر من الص ارعات النفسية الداخلية، فهي ذات غرض دفاعي ووقائي في الوقت نفسه.

[21]– أرنت، ليبهارت، الديمقراطية التوافقية في مجتمع متعدد، ترجمة: حسني زينة ، دار الف ارت للنشر، بغداد ،2006، ص:233.

باختصار فإن غياب استراتيجيات المواطنة، أو التخطيط لمشروع الدولة الوطنية، في كثير من الأقطار العربية، قد أسهم في إثارة مشكلة الأقليات، فكان سببا آخر يضاف إلى السياسات الغربية التي خدمت مشكلة الإثنيات مصالحها ولا سيما في المنطقة العربية.

لا شك أن المجتمعات الإنسانية المعاصرة، بما فيها المجتمعات الغربية، تتكون من أقليات وإثنيات متعددة ومختلفة، غير أن المجتمعات الصناعية نجحت في جعل التعددية الإثنية عامل ازدهار وتفوق، وذلك بتنمية قيم التسامح والعيش المشترك ، وما يتيحه ذلك من إمكانات التفاعل والتواصل بين ثقافات متعددة ،وما يؤدي إليه من ممارسة الحرية الفردية والجماعية، حيث وعت تلك المجتمعات مع بدء الثورة الصناعية في أوروبا بأن إرساء مبدأ التعددية وسيلة لنمو القيم الإنسانية، وهو نوع من التعدد الذي يثري إنتاجية تلك المجتمعات في النواحي كافة، وليس ذلك فحسب بل إن التعددية في المجتمعات الصناعية تمثل عامل جذب للإثنيات داخل المجتمع، ثم إنها عامل جذب للأقليات التي تعاني من الاضطهاد في كل بقاع العالم، فالقبول بالتنوع من الدوافع للاستثمار المادي في تلك المجتمعات، في حين تتحول المجتمعات التي تعاني من صراعات طائفية وإثنية تشكل عنصر طاردا للخبرات الوطنية التي يتم استثمارها على نحو فعال في المجتمعات الغربية التي تشكل عنصرا جاذبا لتلك الخبرات، حيث يفرون من مجتمعاتهم التي تقدس التماثل الديني والتجانس القومي ، وترفض التعدد والاختلاف وال رأي الآخر.

ومن أجل المواءمة بين الهوية الفردية والهوية الوطنية الجامعة، لابد من اتباع أساليب علمية تتفهم طبيعة إنتاج النظام الاجتماعي الذي تعيش فيه الإثنيات بجانب الأكثرية، ولإيجاد مناهج بديلة للسيسيولوجيا السائدة، كالاعتماد التعدد الثقافي، بهدف صيانة النظام الاجتماعي وإنشاء تصنيفات لتصرفات الأفراد داخل المجموعات الاجتماعية، استنادا إلى تجربة تلك المجموعات دون فرض آ راء مسبقة تتعلق بالنظام الاجتماعي.

لا شك أن الإثنيات في الوطن العربي مرتبطة بقوى خارجية، وحفاظاً على مصالح تلك القوى يتم إثارتها لتدخل في ص ارع مع المجتمعات العربية التي تعايشت معها منذ زمن بعيد، وربما كان الإرث الاستعماري الغربي من أهم العوامل الفاعلية في تشجيع الإثنيات على الانتفاض والمطالبة بالانفصال، حيث تدعم الأنظمة الغربية والولايات المتحدة والصهاينة تلك الإثنيات تضمن خطط ومشاريع تهدف إلى تهميش الدول العربية، وتحييدها عن الصراع العربي الصهيوني.

يضاف إلى ذلك الدور الذي تلعبه الدول الإقليمية كإيران وتركيا وأثيوبيا في دعم النزعات الإثنية في البلاد العربية، خاصة أن معظم الإثنيات قريبة من حدود دول الجوار مما وفر الملاذ الآمن للعناصر الإثنية المنتفضة على الأنظمة العربية التي تعيش تحت سيطرتها، كما شكلت تلك الدول نقاط انطلاق للجماعات الإثنية، إضافة للدعم غير المحدود الذي تقدمه دول الجوار إلى المعارضة الطائفية، وهو أمر شديد الوضوح في جنوب السودان حيث أعلنت الأقليات هنا.

المراجع:

1. أبو أصبع، صالح. تحدياتُ الإعلامُ، دار الشروق العربي1999 م.
2. أبو الفرج الأصفهاني، الأفغاني، مطبعة التقدم بالقاهرة.
3. أرنت، ليبهارت، الديمقراطية التوافقية في مجتمعُ متعدد الديمقراطية التوافقيةُ في مجتمعُ متعدد، ترجمة: حسني زينة، دار الفرات للنشر، بغداد ،2006.
4. إريكسن، توماس، العرقيةُ والقومية، ترجمة: عبد الحسين لاهي، دار عالم المعرفة ،1993.
5. باشلار، غاستون، جمالياتُ المكان، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات، ط5، بيروت.
6. بيتر، جون، الاتصالُ الجماهيري، ترجمة: عمر الخطيب طبع المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1987م.
7. الدوري، حازم، فلسفة الفكر القومي عند ساطعُ الحصري، مجلة سامراء، المجلد:7: العدد:26، السنة: 7، تموز :2011.
8. ابن الرومي، ديوانه، تحقيق: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت ،1990
9. العبدالله، مي، الاتصال والديمقراطية، دار النهضة العربية بيروت 2005م.
10. العطية، مروان، معجمُ المعانيُ، الجامع، دار غيداء، ط1، 2018.
11. العلاف، إبراهيم، الاتجاه القوميُ التاريخي، بطرس البستاني، مدونة إبراهيم العلاف، منقول من كتابه " تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني (1516–1916) دار ابن الأثير للطباعة والنشر الموصل ،1983.
12. عمارة، محمد، رفاعة الطهطاوي زعيم النهضة الفكرية في عصر محمد رفاعةُ الطهطاويُ زعيمُ النهضةُ الفكرية فيُ عصر ُمحمدُ علي (مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة ،2019.)
13. كين، جون، العنف والديمقراطية، ترجمة هيثم فرحت نشر الهيئة العامة السورية للكتاب دمشق2011م.
14. محمد، آلاء– زهراء كريم، تجليات الغربة في شعرُ المهجر، رسالة جامعية مقدمة لجامعة القادسية بإشراف د. رواء نعاس ،2017.
15. هالدي، ريد، الإثنية ُوالدولة، ترجمة عبد الله النعيمي، نشر معهد الد راسات الاستراتيجية ، بغداد 2006 م.
16. هنتنغتون، صموئيل ،صدامُ الحضارات، ترجمة: طلعت الشايب، ط2، 1999.ُ

ُ